

المرأة ونسق التحجب، بين الثابت الشرعي والمتحول الثقافي
دراسة أنثروبولوجية ميدانية على عينة من الطالبات المحجبات بجامعة - الجزائر 2-

Women and the pattern of occultation
between the legal constant and the cultural shift.
An anthropological field study on a sample of veiled female students
at the University of Algeria 2-

حسين حبيس¹

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
hhmtess34@gmail.com

د. محمد سعدي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
msaidi45@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2020/09/04 القبول 2021/03/07 النشر على الخط 2021/10/30
Received 04/09/2020 Accepted 07/03/2021 Published online 30/10/2021

ملخص:

تسعى هذه الدراسة الميدانية إلى تسليط الضوء على نسق تحجب المرأة (الطالبة) في إطار الحدائثة الراهنة وفق مقاربة أنثروبولوجية، وقد استخدم المنهج الكيفي لإجراء هذه الدراسة بالاعتماد على تقنيتي الملاحظة والمقابلة، تكونت العينة من 20 حالة من النساء الطالبات تمت مقابلتهن فرادا، وذلك لمعرفة واقع نسق التحجب من حيث المرجعية الضابطة له، والأنماط الشائعة للحجاب، وأساليب ومزايا ارتدائه.

وقد تبين من نتائج البحث أن نسق تحجب الطالبة الجامعية يشع بدلالات أنثروبولوجية تتجاوز ما هو تقليدي إلى ما هو حداثي، فهي تعد أحد امتدادات الجسد الأنثوي وأبرز المؤشرات الدالة على التحول الحامل لقيم الموضة والمظهر والجمال، هذا التحول القيمي غذته وسائل الإعلام والاتصال بالدرجة الأولى أثر في طبيعة الوضع الثقافي للطالبة. فطغت الفردانية الجمالية على نسق تحجبها، وتعددت أنماطه، وتنوعت أساليبه ومزايا ارتدائه.

الكلمات المفتاحية: الطالبة الجامعية؛ نسق التحجب؛ الجسد الأنثوي؛ قيم الحدائثة.

Abstract:

This field study seeks to shed light on the pattern of concealing the female student in the context of the current modernity according to an anthropological approach, and the qualitative approach was used to conduct this study by relying on the techniques of observation and interview, the sample consisted of 20 female students who were interviewed individually, in order to know the reality of the pattern of occultation. In terms of its controlling reference, its common patterns, its methods and its advantages.

It was found from the results of the research that the pattern that obscures the university student radiates with anthropological connotations that go beyond what is traditional to what is modern, as it is one of the extensions of the female body and the most prominent indicators of the transformation of the bearer of the values of fashion, appearance and beauty. The cultural status of the student, thus overshadowing a pattern that is obscured by aesthetic individuality, and its various styles, methods and the advantages of wearing it.

Keywords: undergraduate; Masking format; The female body; Modernity values.

1. مقدمة:

يتضح في السجل التاريخي والاثنوجرافي للتقارير والنظريات المهمة بالملابس أن هذه الأخيرة باعتبارها كموضوع للدراسة، لم تنل من اهتمام الأنثروبولوجيا إلا القليل، وأن وصف الملابس في التقارير الاثنوجرافية أمر نادر، ربما للأهمية الثانوية نسبيا التي تعزى للملابس مقارنة بغيرها من جوانب المجتمع والثقافة، مثل القرابة، والقانون والزواج، والدين... الخ

وقد كان لموضوع الملابس حظا في الصياغات المنهجية لعلم الثقافة الذي أنشأه ابن خلدون في عام 1377، حيث بنى نظرية تغيرات الثقافة على أساس التاريخ الاجتماعي للثقافة الإسلامية المغربية، وقد مثلت الملابس أحد العناصر المميزة والتحويلية في الانتقال بين العمران البدوي ذي الثقافة البدائية والعمران الحضري ذي الثقافة الحضارية، ووفق ابن خلدون فالملابس شيء يلي احتياجا أساسيا، وكلما صارت المجتمعات مستقرة، حضرية ومرفهة، تزداد الملابس تنميكا وثراء¹.

كانت الملابس التقليدية في المجتمعات المسلمة مزيجا من نسق التحجب العربي الذي تم نشره مع توسع الدولة الإسلامية، ومن ثم تصديره مع حركة الهجرة إلى أوروبا وأمريكا، متداخلا مع نواتج البيئة الثقافية المحلية، حاملا معه ما يعرف بنظام الحرمة الذي يقره الدين والتقاليد.

غير أن نسق التحجب أعيد بلورته مرة أخرى في العصر الحديث نظرا لبدء عملية تحديث كل المجتمعات العربية وبداية أفول الملابس التقليدية في المدن لتترك فراغا تملؤه الملابس الغربية. فكثيرا ما تتلاقى إحدى دلالات اللباس التقليدي مع دلالات الأنماط الحديثة من الحجاب، ولكن الفاصل بينهما يتمثل في ثنائية التقليد والحداثة.

وفي سياق هذه الثنائية، تأتي هذه الدراسة الميدانية الموسومة بالمرأة ونسق التحجب بين الثابت الشرعي والمتحول الثقافي، لاستقراء واقع معاش المرأة مع لباس الحجاب، ومحاولة تقديم فهم نوعي وأنثروبولوجي للتحوّل الذي آل إليه نسق تحجب المرأة من خلال نموذج نسق تحجب الطالبة الجامعية.

2. إشكالية الدراسة:

إن الناظر إلى المجتمع الجزائري يلاحظ تحولا وتغيرا جوهريا في شكل ونوعية الحجاب وطرق ودوافع ارتدائه في الأوساط النسائية بطريقة عصرية، تغيرا يثير اليوم التساؤل عن إمكانية احتفاظ المجتمع الجزائري بهويته وذاتيته الثقافية، وتراثه الديني في ظل التغيرات الاجتماعية الراهنة، من المهم أن تفهم هذه الظاهرة في أبعادها وتحليل الأسباب التي تدفع بالمرأة بصفة عامة والطالبة الجامعية بصفة خاصة لارتداء حجاب أقل ما يقال عنه أنه بات يجمع بين المندس الاجتماعي (التبرج) مع المقدس الديني (التحجب) في محاولة للتعايش بين قيم العصر والحداثة وبين قيم الماضي والدين لمواكبة الحداثة بدون تناقض مع الدين كما يعتقدن. هذا ما خلق حالة تشوش نفسي - ثقافي جعل الهوية تتأرجح بين وضعيتين متضادتين: بين الأصالة والحداثة، بين المقدس والمندس.

وبناء على ذلك تجتهد الدراسة للإجابة على التساؤل الرئيس التالي:

- إذا كان لباس المرأة الأثوي يضرب بجذوره في عمق تاريخ قدم، فلماذا انقلبت أوضاعه خلال فترة لا تتجاوز ربع قرن، فتخلى أو كاد عن المرجعية الدينية والاجتماعية التقليدية واستبدالها بمرجعيات غربية وسائرت الطالبات الجامعيات اليوم تقلبات الموضة الأجنبية إلى أبعد الحدود؟

¹ فدوى الجندي، الحجاب بين الحشمة والخصوصية والمقاومة، ترجمة سهام سنية عبد السلام، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016، ص 134.

كما يمكن طرح جملة من التساؤلات الفرعية التي تساعدنا على فك رموز الإشكال الرئيسي:

- كيف يبدو نسق تحجب الطالبة الجامعية في ظل التحول الذي تعرفه منظومة قيم المجتمع الجزائري؟
- ما هي أنماط الحجاب وأساليب التحجب ومزاياه لدى الطالبة الجامعية في ظل قيم التحول الثقافي؟
- ما أثر الإعلام والاتصال الحديث في تغيير نسق التحجب لدى الطالبة الجامعية؟

يمكن التعبير عن الفرضية العامة التي نسعى إلى اختبار قدرتها على الإجابة عن التساؤل العام السابق كالتالي:

● نظرا إلى التحول الذي تعرفه القيم التي تحيط بجسد المرأة بفعل الحداثة المعاصرة وما أفرزته من قيم الموضة والمظهر والجمال عن طريق الإعلام وتأثير العولمة على تغيير نمط العلاقة بالجسد، فإن حجاب الطالبة الجامعية لم يعد مقيدا بتعاليم الدين والتقاليد بل يرتبط بواقع مادي وتوجه دينوي، فتشظت بذلك هوية اللباس الشرعي وتفتتت من خلال نسق التحجب الحداثي بأنماطه وأساليب ارتدائه.

● يمكن تفتيت هذه الفرضية إلى عدة عناصر، تشكل كل واحدة منها فرضية فرعية تسعف في تفسير أحد جوانب الإشكالية السابقة:

- أصبح بالإمكان الملاحظة بوضوح ومعايشة التحولات في نسق تحجب الطالبة الجامعية من الأكثر التزاما إلى الأكثر حداثة بفعل قيم هذه الأخيرة التي أصبحت تحيط بالجسد الأنثوي (الموضة، المظهر، الجمال).

- تتحدد أنماط وأساليب التحجب تبعا لطبيعة علاقة الطالبة بجسدها في الفضاء الجامعي من حيث التمثل الهوياتي، ومزايا الارتداء.

- انتشار نسق التحجب الحداثي لدى الطالبة الجامعية هو نتيجة قوة التأثير الذي يمارسه الإعلام والاتصال الحديث (القنوات الفضائية ومواقع التواصل الاجتماعي) عبر عمليات التثقيف الجديد.

3. أهداف الدراسة:

تستهدف هذه الدراسة تفسير وفهم ظاهرة إقبال الطالبات الجامعيات على ارتداء حجاب الموضة في ظل التطور الثقافي،

الاجتماعي والحضاري من زاوية أنثروبولوجية كهدف رئيسي، والتعرف على ما يأتي كأهداف ثانوية:

- محددات نسق تحجب الطالبة الجامعية في ظل التحول الذي تعرفه منظومة قيم المجتمع الجزائري.

- كيفية مساهمة وسائل الإعلام والاتصال في إقبال الطالبة الجامعية على نسق التحجب الحداثي.

- معرفة أنماط الحجاب الأكثر انتشارا في المجتمع الجزائري.

- معرفة أساليب وتقنيات تحجب المرأة الجزائرية من خلال واقع معاش الطالبة الجامعية مع حجابها.

4. المفاهيم الرئيسية للدراسة:

1.4 المرأة:

- لفظ المرأة في اللغة العربية معنيان:

الأول: بمعنى علو الهمة وارتفاع الشأن.

الثاني: بمعنى المروءة وهي مرتبة أخلاقية.

والمرأة جمع مفرد نساء من غير لفظها، مؤنث الرجل.¹

وبذلك يشير لفظ المرأة إلى الإنسان الأنثى البالغة، بل أن البعض يفهمها على أنها تشير إلى الإنسان الأنثى المتزوجة أو التي سبق لها الزواج.

نستخدم المرأة في هذه الدراسة للدلالة على الإنسان الأنثى مع الأخذ بعين الاعتبار الحد الأدنى للسن وهو 18 سنة كاملة فما فوق، وبغض النظر عن حالتها الاجتماعية (متزوجة أو عازبة أو عاملة)، وبمختلف انتماءاتها الاجتماعية والطبقية، وأيضا مستوياتها التعليمية والثقافية، التي تأثرت بسياق التحديث المهيمن على النسق الثقافي ورموزه. وبالتالي فإننا سوف نناقش لباسها الشرعي في ظل المودة الوافدة التي غزت المجتمع الجزائري.

2.4 اللباس:

من الناحية اللغوية مدلول اللباس كما جاء في لسان العرب لابن منظور:

اللبس: بالضم، مصدر قولك لبست الثوب واللباس ما يُلبس... وثوب لبيس إذا كثر لبسه.²

واللباس، واللبوس، واللبس، والملبس: ما يوضع على الجسد ويستتره، والجمع: ألبسة ولبس، كما يطلق اللباس في اللغة على كل ما يغطي الإنسان عن قبيح .

كما قيل: "اللام والباء والسين": أصل صحيح واحد، يدل على مخالطة ومداخلة، ومن ذلك: لبست الثوب ألبسة، وهو الأصل ومنه تفرعت الفروع... واللبوس: كل ما يلبس من ثياب، ودرع.³ يقول تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" (سورة الأعراف، الآية 26)، من خلال الآية الكريمة أنعم الله عز وجل على بني آدم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه، أي قد خلقنا لكم لباسين: لباس يستر عورتكم، وهو لباس الضرورة ومنه اللباس الداخلي وحجاب المرأة ونحو ذلك، ولباس يزينكم وتحمّلون به، وهو ظاهر الثياب الذي يحصل به الكمال والتّنعّم، غير أن لباس التقوى وهو ما قر في النفس من إيمان وورع.⁴

3.4 نسق التحجب (الثابت الشرعي):

نسق التحجب الشرعي هو كل لباس يتوافق مع ما يقره الدين وما يقره المجتمع ويرتبط بالتقاليد والعادات والأعراف الاجتماعية، أي ما هو ثابت دينيا وسائدا عبر التاريخ ومقبول اجتماعيا من حيث وظيفته، ومن حيث استجابته إلى ما يفرضه الشرع، والمعبر عن الهوية ومن الأشكال التي تدخل ضمن محددات اللباس الأنثوي الشرعي الذي يطول تغطية الرأس وكامل الجسد مع إظهار الوجه والكفين وإن كان ثمة اجتهادات تتجاوز ذلك إلى تغطية الوجه بالكامل مع أجزاء الجسد كافة بحيث لا يظهر منه شيء، والناظر في هذه الأدبيات يجد أنه كثيرا ما يحصر تدين المرأة في التقيد بالحجاب الذي عرف اختلافا حول شروطه وأوصافه بل وحتى ألوانه، فالبعض يحصره في الألوان الداكنة، والبعض الآخر يضع شروطا لطوله وشكله بين من يقصره على الجلباب ولا يرى غيره لباسا

¹ قاموس البدر، قاموس عربي عربي، دار البدر الساطع للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 2005، ص 208.

² ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني عشر، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، ط2، 1993، ص 223.

³ أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج3، دار الفكر، بيروت، ص 230.

⁴ عبد الوهاب عبد السلام طويلة، فقه الألبسة والزينة، دار السلام، القاهرة، ط1، 2006، ص 12.

شرعياً، علماً أن شروط الحجاب التفصيلية كشكله ولونه أمر موكول للثقافات التي تبدع أشكالاً متغيرة تتوفر فيها الشروط العامة للحجاب الذي يجب أن يكون ساتراً للجسد كاملاً عدا الوجه والكفين، وتحقيق الستر بشكل جميل لا يتعارض ومقاصد الشرع. ومن الأنواع التي تدخل في إطار الثابت الشرعي على وجه التحديد الحجاب، الجلباب، النقاب، البرقع والحايك بأنواعه وما شابه ذلك.

4.4 نسق التحجب (المتحول الثقافي):

يقصد بنسق التحجب الحدائي كل أشكال الحجاب المنتشرة بين الطالبات الجامعيات، بحيث نلمس فيه بعض شروط الحجاب الشرعي مع إدخال تعديلات أخرى عليه مثل الألوان، التصاميم...، فتتفنن فيه المتحجبة حسب ما يطابق مرغوباتها منه، إذ تضع دائماً خمار على الرأس بينما في الأسفل تتفنن في ارتداء القطع الملبسية الأخرى (قميص، ليكات، سروال ضيق، تنورة...)، إذا فالتحول الثقافي هو ذلك النمط المتجدد في اللباس الذي تأثر بموجة الموضة كغيره من الألبسة الأخرى ليصبح مسائراً وخاضعاً لها حتى على حساب مواصفات الحجاب الشرعي.

5.4 الطالبة الجامعية:

فئة اجتماعية من فئات المجتمع، هي جزء من فئة الشباب لا تزال خارجة عن دائرة العمل، هي في حالة تكوين ثقافي جامعي موجه أساساً لتكوين النخبة والإطارات المستقبلية.

5. الدراسات السابقة:

1.5 دراسة "حسينة ولد موسى"¹: أنجزت سنة 2000 بجامعة الجزائر حول موضوع "ظاهرة الموضة دراسة حالة اللباس النسوي" انطلقت الباحثة من فرضية مفادها أن تهميش الجزائريين لثقافتهم الأصلية دون مراعاة المفهوم الحقيقي للعصرنة الذي يقتضي الربط بين الأصالة والمعاصرة، ووجود تعايش بين نمطين ثقافيين أحد العوامل الأساسية لإتباع ظاهرة الموضة، وعليه فضعف العملية التربوية والثقافية للآباء ساهمت في ظهور وانتشار وتأثير وسائل الإعلام يضاف إلى ذلك تأثير المستوى المعيشي الذي يتحكم في مدى تأثر الأفراد وإتباعهم للظاهرة. جرى البحث على 105 طالبة تم اختيارهن عن طريق الاختيار العشوائي فكان التوزيع 30 طالبات من كل معهد، علم الاجتماع، علم النفس، لغات أجنبية، وكل معهد هناك 15 طالبة مرتدية الحجاب الأوروبي ضف إلى هذا 15 طالبة من معهد الشريعة يرتدين الجلباب. توصلت الباحثة إلى أن أغلبية المبحوثات لم يمارس عليهن ضغط خارجي مباشر على ارتداء نوع معين من اللباس الأوروبي أو الحجاب أو الجلباب بل كان عن اقتناع شخصي، مع تأثير الأسرة والمجتمع بمختلف مؤسساته التي تكسبها أنماط وتوجهات معينة، المستويات المعيشية للأفراد تحدد نوعية اللباس من حيث مطابقته للموضة وكذا جذوره الاجتماعية غربية أو شرقية بالإضافة إلى سعره، الوسائل الإعلامية بمختلف أنواعها السمعية منها والمرئية أثرت على سلوكيات وتصورات الأفراد، كما تعتبر من الميكانيزمات الأساسية في عملية اختيار نوع اللباس، وتبقى أن المسألة الثقافية بما في ذلك من عادات وتقاليد ومعتقدات دينية وعرفية مهمشة بواسطة تهميش أحد أبسط رموزها وهي اللباس أمام الغزو الثقافي الأجنبي من خلال وسائل الإعلام باسم الموضة والعصرنة.

¹ حسينة ولد موسى، ظاهرة الموضة دراسة حالة اللباس النسوي، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، جوان 2000، ص 22.

2.5 دراسة "فتيحة عين المرة"¹: أنجزت سنة 2007 بجامعة سعد دحلب حول موضوع لباس الفتاة الجزائرية دراسة ميدانية للباس الطالبات الجامعيات، انطلقت الباحثة من فرضية أن كل من التنشئة الاجتماعية ووسائل الإعلام وشخصية الطالبة محددات حاسمة في تحديد شكل لباس الطالبة.

وتوصلت من خلال هذه الدراسة لاسيما إلى أن الجامعة فضاء يعكس العادات والتقاليد والقيم الناجمة عن التنشئة المحلية للمتوافدات على الجامعة من المناطق المختلفة للوطن، كما أن لطبيعة شخصية الوالدين دور في توجيه بناتها نحو اختيار نوع معين من اللباس، وكذلك فإن لترويج وسائل الإعلام الألبسة المسيرة للموضة دافع إلى اقتناء الطالبة الجامعية لتلك الألبسة.

3.5 دراسة ليلي حسيني²: أجرتها الباحثة في الفترة الممتدة بين أكتوبر 1989 وماي 1990 بالرباط، هدفت من خلاله إلى التعرف على الأسباب التي دفعت بالنساء المتعلمات والعاملات إلى ارتداء الحجاب، وقد ركزت الباحثة على النساء المتعلمات بداعي ارتدائهن للحجاب عن اقتناع وملك معرفة لا بأس بها حول الإسلام.

وظفت الباحثة تقنية المقابلة لجمع البيانات، بحرية 30 مقابلة على مبحوثات تتراوح أعمارهن بين 20 و40 سنة، أحيانا في الجامعة، وأحيانا أخرى في بيوت المبحوثات، وقد توصلت الباحثة لاسيما إلى النتائج التالية:

أضحى ارتداء الحجاب رمزا للاستقرار الذي يمكن أن يتغير لفقدان السيطرة عليه، فالمغرب يتواجد بين مفترق الطرق، بين القيم التقليدية الموروثة عن الإسلام والتحضر الغربي.

النسوة المتحجبات تطالبن بهويتهم الإسلامية الفعلية المنسجمة مع ميراثهن الإسلامي الخالي من المادية والقيم الغربية، إذ يطالبن بتطبيق صادق للإسلام، أداء قائم على معايير ثقافية داخلية وقيم حقيقية للإسلام.

تحظى النساء المحجبات باحترام الرجال ويزيد الحجاب من حرية حركتهن، بالإضافة إلى الحمار الذي كان ينظر إليه كوسيلة لتقييد المرأة، فضلا على أن له ميزة محررة، يسمح للمرأة بالظهور الفعال في الفضاءات العامة التي تعتبر المرأة فيها مرفوضة بحكم التقاليد، فالحجاب هو إذا ردة فعل شرطية لا شرعية باستثناء داخل المعايير الموضوعة من طرف الرجال على النساء.

يعزل الحجاب المرأة ويحميها من عالم متغير، يؤكد دورها المألوف، ويمنع دخولها إلى العصرية.

تمثل المتحجبات في المجتمع المغربي عنصرا أساسيا للدوام والتلاحم في عالم مراقب من قبل الرجال وخاضع للتغيرات.

4.5 التعقيب على الدراسات السابقة:

في ضوء ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى أن الدراسات حول اللباس الأنثوي انحصرت معظمها منذ القدم ولا تزال كذلك في طرح ديني أو سوسولوجي أو سيكولوجي، وتكاد تنعدم من وجهة نظر أنثروبولوجية، من هنا تأتي هذه الدراسة لتناول موضوع اللباس الأنثوي ومسألة نسق تحجب المرأة (الطالبة) في إطار ثنائية التقليد والحداثة وفق أسس معرفية ومنهجية مستمدة من الطرح الأنثروبولوجي، وهنا يكمن الفرق الجوهرى مقارنة بالدراسات السابقة والدراسة الحالية من خلال السعي لتقديم وصف كفي معمم للتحويل الذي

¹ فتيحة عين المرة، لباس الفتاة الجزائرية، دراسة ميدانية في وسط طالبات جامعة سعد دحلب البلدة، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة سعد دحلب البلدة، جوان 2007، ص 17.

² Hessini Leila, femmes culture et société au Maghreb, culture femme et famille, signification du voile au Maroc, tradition, Protestation ou libération, Afrique orient, Casablanca, V1,1996, PP 57-58.

يعرفه نسق تحجب المرأة ضمن واقع اجتماعي محكوم بمنطق التفاعل الحتمي مع الآخر، وهيمنة العولمة الاقتصادية، والنظر في أقوال العلماء ونظريات الإنسان والثقافة في هذا المجال.

6. منهج الدراسة وأسلوب جمع المعطيات:

1.6 منهج الدراسة:

من وجهة نظر معرفية تصنف البحوث إلى بحوث كمية وأخرى كيفية (نوعية)، "يستخدم المصطلحان كمي ونوعي للإشارة إلى مناهج مختلفة في البحث متمثلة في جمع البيانات وتحليلها، ونوع التعميمات والاستنتاجات التي يتوصل إليها"¹، والبحث الكيفي الذي يسمى أحيانا بالنوعي، ظهر مع بداية القرن العشرين، وهو يشير في معناه إلى محاولة الوصول إلى فهم عميق ومتعمق للمعاني والتعريفات، كما أنه نوع أساس من بحوث الأنثروبولوجيا والتي يعتمد الباحث فيها على رصد آراء المبحوثين، ويسأل أسئلة عامة وواسعة، ويجمع البيانات على شكل نصوص أو صور مع القيام بوصف هذه النصوص وتحليلها في ضوء محاور متحليا بالموضوعية أثناء البحث.²

ومن منطلق الدراسة الحالية وما تبحت فيه من مبررات أنثروبولوجية تفسر لماذا انقلبت أوضاع لباس المرأة الأنثوي وتخلي أو كاد في فترة لا تتجاوز ربع قرن عن المرجعية الدينية والاجتماعية التقليدية واستبدالها بمرجعيات غربية وسائرت الطلبة الجامعية اليوم تقلبات الموضة الأجنبية إلى أبعد الحدود، وكيف تم هذا التحول وبأي طريقة.

فإن المنهج الكيفي يكون أكثر ملاءمة من المنهج الكمي للدراسة الحالية، من أجل الوصول إلى الإجابة بأفضل طريقة على الإشكالية المطروحة.

2.6 أسلوب جمع المعطيات:

إلى جانب الملاحظة المتجذرة في جميع العلوم الاجتماعية والإنسانية، يتفرد البحث الكيفي بأدوات رئيسة أخرى لجمع المعلومات، يتم استعمالها كأساليب لجمع مادة البحث منها:

1.2.6 الملاحظة بالمعيشة:

إذا كانت أداة الملاحظة لا تخلو من أي بحث علمي، ففي البحث الأنثروبولوجي تكتسي أهمية كبيرة بشكل خاص، إذ تحتاج المواقف السلوكية أن يقوم الباحث بملاحظتها في وضعيتها الطبيعية، وقد تكون الملاحظة مباشرة، وقد تكون بالمعيشة.

فالملاحظة المباشرة تعتمد على تعداد ومراقبة مجموعة من الأفعال أو الأقوال بشكل محدد، فمن خلال معاينة ومقابلة أفراد المجتمع الذي تجري عليه الدراسة في أثناء تأدية أعمالهم اليومية المألوفة يسعى الباحث إلى جمع المعلومات حول الموضوع المدروس³، وهذا بغرض عملية التوصيف والتصنيف العلمي.

¹ فري كامل أبو زينة وآخرون، مناهج البحث العلمي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2007، ص 31.

² جمال بن عمار الأحمر، الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2015، ص ص 131-132.

³ فتحية محمد إبراهيم وآخرون، مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، دار المريخ، الرياض، 1988، ص 185.

أما الملاحظة بالمعايشة، فيجب أن نعلم أنه مع تقدم الدراسة أو البحث تتغير طبيعة الملاحظة إذ تزداد تركيزاً ما يضيف مزيداً من الدقة والوضوح في أسئلة البحث الأمر الذي يسهم بدوره في دقة أكثر في اختيار مواضيع الملاحظة وهذا ما يفرض على الباحث الأنثروبولوجي الإقامة لشهور عدة في المجتمع المدروس ليتمكن من ملاحظة دقائق الحياة اليومية كما تجري بين أفراد المجتمع.¹ لذلك تمثل الملاحظة بالمعايشة جوهر البحث الأنثروبولوجي لأنها من أهم أدوات المنهجية المستخدمة والمقصود بها "الاندماج الكامل في حياة المجتمع"²، الملاحظة بالمعايشة لا تعني فقط الملاحظة البصرية بل أيضاً الملاحظة السمعية التي تعني الإصغاء إلى التفاعلات اللفظية التي تحتاج إلى الملاحظة والإصغاء والفهم³، فيعتمد الباحث على تقييد ملاحظاته آنياً في تقارير يومية على شكل كتابات وتسجيلات صوتية وصور تيسر عليه عملية التحليل فيما بعد.

وظفنا هذه التقنية المنهجية في مجتمع بحثنا الذي يمثل في ذات الوقت مجتمعنا ومكان إقامتنا مما سهل علينا العديد من الصعوبات أهمها إمكانية الاندماج في مجتمع البحث وهذا أمر إيجابي بالنسبة للملاحظة بالمعايشة وما تبقى من مراحل البحث، إذ بفضل هذه التقنية عايشنا ولاحظنا العديد من الممارسات المتعلقة بسلوك التحجب، ملتزمين في ذلك بتوجيه الباحث الدكتور معن خليل والذي يطالب فيه الباحث من جهة "أن يحترم ما يلاحظ دون إسقاط انطباعاته القيمية والشخصية على ما يلاحظ وأن يكتفي بوصفها كما هي مع تحليلها بشكل محايد."⁴ ومن جهة أخرى يؤكد على أنه "إذا التزم الباحث بهذه اللزوميات البحثية فإن بحثه يكون عال في موضوعيته ونتائج دراسته تكون أكثر رصانة."⁵

2.2.6 المقابلة:

هي واحدة من الأساليب الرئيسية لجمع المعلومات في البحوث الكيفية، وإذا كان هدف الباحث الأنثروبولوجي استخلاص وجهة نظر الأفراد موضع البحث، وأسلوبهم المتميز في رؤية الأشياء والأشخاص، فإنه من الضروري أن يدخل المقابلة كوسيلة أساسية في تحقيق هذا الهدف، وتمثل المقابلة الحرة الاختيار الأنسب الذي يمكن من الاستماع المتأني لآراء المبحوثات، والتعبير الحر عن مشاعرهن وعواطفهم، وتصوراتهم اتجاه اللباس عامة ونوع اللباس الذي يرتدينه خاصة، لأنها تشمل على الحديث العادي وتوجيه أسئلة ذات نهايات مفتوحة تتيح للفرد أن يبدي رأيه في الموضوع المطروح، ناهيك عن أنها تسمح بالتعرف على المبحوثة من ناحية مظهرها (أي نوع من الحجب الذي ترتديه - كيفية كلامها - شخصيتها - مزاجها...)، وخلال المقابلة يتلخص موقف الباحث في أن يكون مستمعاً وملاحظاً جيداً، فهو يستمع لكل كلمة تقال، و يلاحظ كل الإيماءات والإيعازات، وحركات الأيدي، وباقي أعضاء الجسم خلال الحديث⁶، وكل ذلك مهم جداً في عملية البحث، ما يجعل من المقابلة في البحوث الأنثروبولوجية أسلوباً

¹ نفس المرجع، ص 185.

² سعاد عثمان، تكامل المنهجية عند أحمد أبو زيد، مجلة العربي، "العالم والمفكر أحمد أبو زيد رائد الأنثروبولوجيا، العدد 659، وزارة الإعلام، الكويت، أكتوبر 2013، ص 28.

³ جان كويان، المسح الإثنولوجي ودراسة الممارسات الدينية، ترجمة جهيدة لاوند، معهد الدراسات الاستراتيجية، ط1، بيروت، لبنان، 2008، ص 57.

⁴ معن خليل عمر، مناهج البحث في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997، ص 222.

⁵ المرجع نفسه، ص 223.

⁶ فتحة محمد إبراهيم وآخرون، مرجع سابق، ص ص 189-191.

يدعم أداة الملاحظة كما سبقت الإشارة إليه، فمن خلال دليل المقابلة يُكشف عن حقائق يتعذر الوصول إليها بواسطة الاستمارة، فهو يمكن الباحث من ملاحظة ردود أفعال المبحوثات باستمرار وتدوين كل كبيرة وصغيرة عنها لتوظيفها في عملية التحليل.

7. مجتمع البحث وعينة الدراسة:

1.7 مجتمع البحث:

يتحدد مجتمع بحثنا في الطالبات المحجبات اللواتي يزاولن دراستهن العليا على مستوى جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله، التي أنشأت بموجب المرسوم التنفيذي 101/264¹، والذي تم بموجبه إدماج كل من كلية العلوم الاجتماعية وكلية العلوم الإنسانية في كلية واحدة هي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث تضم الكلية خمس (05) أقسام هي: قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، التاريخ، علم الاجتماع، الفلسفة، وأخيرا قسم علم المكتبات والتوثيق، حيث تتواجد الجامعة على مستوى شارع جمال الدين الأفغاني بوزريعة الجزائر العاصمة.

2.7 عينة الدراسة:

الحديث عن الأدوات المعتمدة في جمع البيانات في سياق المنهج الكيفي، يقودنا في هذه المرحلة إلى التأكيد على أن هذه الأدوات ترتبط بمنظومة تحليلية تعتمد على فهم وتفسير وشرح وتأويل الباحث للظاهرة التي يدرسها أي تحليل وتأويل الرموز والمعاني التي يسقطها الفاعلون الاجتماعيون على سلوكياتهم وتصوراتهم. ولعلّ من أبرزها بداية القيام بما يعرف بعملية المعاينة، أي اعتماد جمع المعلومات من خلال عينة، أو عدد محدود وكاف من الحالات، ويتمتع بخصائص معيارية يفرضها موضوع البحث ويتطلبها البحث الميداني تجعل هذه العينة متاحة وممثلة.

اختيار المشاركين لتحصيل البيانات، عادة يكون عدد الأفراد في البحوث الكيفية محدود مقارنة بالعينة في البحوث الكمية، كما أن اختيار العينة في الكيفية يكون بشكل قصدي وليس بشكل عشوائي، إذ من خصائص البحث الكيفي لاسيما ضمن استراتيجيات التصميم في البحث الكيفي تبرز العينة القصدية كتقليد، فهي الخيار المناسب، يتم فيها: "انتقاء أفرادها بشكل مقصود من قبل الباحث نظرا لتوافر بعض الخصائص في أولئك الأفراد دون غيرهم من الفئات"²، وبالتالي فالحالات المدروسة (أفراد، منظمات، جماعات، ثقافات، أحداث) تقدم دلائل مفيدة عن الظاهرة المدروسة، وعليه يكون اختيار العينة غرضه الوصول لفهم الظاهرة بعمق وليس الغرض التعميم من العينة إلى المجتمع الأصلي.

لذلك فعينة الدراسة الحالية عينة قصدية. وهي تدرج ضمن العينات غير الاحتمالية وتؤخذ بناء على الحكم الشخصي للباحث على أنها هي العينة المستهدفة أو المهمة للدراسة، أو القدرة على إعطاء بيانات والمعلومات اللازمة للإجابة عن تساؤلات الدراسة أو اختبار فرضياتها.

¹ مرسوم تنفيذي رقم 01 - 264 مؤرخ في 18 سبتمبر سنة 2001، يعدل المرسوم رقم 84 - 209 المؤرخ في 18 أوت سنة 1984 المتضمن تنظيم جامعة الجزائر وسيورها، المعدل المتضمن تنظيم جامعة الجزائر وسيورها، المعدل.

² محمد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل والتطبيقات، دار وائل للنشر، عمان، ط 2، 1999 ص 96.

ومنه، تضمنت عينة هذا العمل عشرون (20) طالبة محجبة بحجاب الموضة من مستويات تعليمية مختلفة الليسانس، الماجستير وكذا الماجستير تتراوح أعمارهن من 18 إلى 27 سنة متوافدات من الجهات الأربعة للوطن: الشرق، الغرب، الشمال، الجنوب، تجمع بينهن العزوبة أي غير متزوجات، هذه المميزات تعكس اندماج الطالبات في الحياة الجامعية ونسج علاقات اجتماعية مختلفة تؤثر في سلوكياتهن من ذلك كيفية الكلام واللباس وطريقة المشي والجلوس...، قد تكون مستوحاة من تبني قيم مناهضة لتقاليدنا الاجتماعية في محاولة منها للتكيف والاندماج مع متطلبات الحياة العصرية، ويكون ذلك بالتنازل عن بعض القيم والتعديل في قيم أخرى وتبني قيم الحداثة.

8. نتائج الدراسة:

لقد تم إجراء المقابلات في حدود ثلاثة (3) أشهر كاملة، أي ما بين الفترة الممتدة من: 10 أبريل 2019 حتى بداية شهر جويلية 2019. وقد أجريت بعد اتفاق مسبق مع الحالات قبل استجوابها. وغالبا ما كان يتم ذلك في الفترة الصباحية، أي في بداية اليوم عند وصول الطالبة إلى الجامعة وقبيل الالتحاق بالقاعة أو المدرج للدراسة، أما المقابلات مع الحالة الواحدة أحيانا كانت تتم في لقاءين، كل لقاء يدوم من 45 دقيقة إلى ساعة ونصف.

لم تكن التساؤلات التي وجهت إلى أفراد العينة اللواتي أجريت معهن المقابلات الشخصية تهدف إلى الحصول على إجابات نمطية يتم تبويبها وتصنيفها في جداول وأعمدة بيانية جامدة بقدر ما كانت لأجل المقارنة الكيفية لعدد قليل من المبحوثات، والتغلغل في الأعماق النفسية للأنتى للتعرف على خبايا الممارسة التي تشد المرأة إلى ماضيها فتتشبث بتقاليد وأعراف متجذرة في عمق تاريخ قديم، أو تدفعها إلى الأمام دفعا فتقلب عليه وتنتزع نفسها من قيود التقاليد وتساير تقلبات الموضة الأجنبية إلى أبعد الحدود.

لذلك فقد اتخذ البحث الميداني للدراسة الحالية شكل المقابلات المفتوحة غير المقننة لعدد من النساء الطالبات، حيث تتيح مثل هذه المقابلات تحقيق الهدف الرئيسي المتمثل في تفسير وفهم ظاهرة إقبال الطالبات الجامعيات على ارتداء حجاب الموضة في ظل التطور الثقافي والاجتماعي والحضاري من زاوية أنثروبولوجية، فضلا عن تحديد أبعاد ارتداء الطالبة الجامعية لحجاب الموضة داخل المجتمع، وكذا كيفية مساهمة وسائل الإعلام والاتصال في تبني الطالبة الجامعية لحجاب الموضة، وبالتالي الوقوف على قيم التحول في ثقافة اللباس الشرعي لدى الطالبة الجامعية ومبررات ذلك.

لقد أمكن من خلال الملاحظة، ومعايشة واقع معاش المرأة مع لباسها، وعلى ضوء المقابلات تتبع مدى مسايرة أفراد عينة البحث واستخلاص ما يلي في حدود الفرضيات المقترحة:

1.8 نتائج الفرضية الأولى المتعلقة بواقع نسق تحجب المرأة "الطالبة" في ظل التحول الذي تعرفه منظومة قيم المجتمع الجزائري؟

أصبح بالإمكان ملاحظة بوضوح ومعايشة تحولات في نسق التحجب تقبل عليه عينة البحث بكثافة في الفضاءات الجامعية يختلف اختلافا واضحا عن الثابت شرعيا، يعكس إلى حد بعيد الفردانية الجمالية بكل ما تحمله من معاني.

إذ تبين لنا المعطيات الميدانية المتاحة عبر تقنيتي الملاحظة والمقابلة أن نسق التحجب الحالي لا يتحدد بالاستناد إلى مرجعية دينية أو تقليدية في واقع الممارسة، خاصة فيما يتعلق بشكله وبطريقة وضعه على الرأس، إنما يتحدد بالاختيارات الفردية للطالبة. فنسق التحجب أصبح يخضع إلى الذوق والجمال بدرجة أولى، يؤكد لنا هذا الملاحظات الميدانية، إذ نلاحظ تحول اللباس الذي يرافق غطاء

الرأس من لباس فضفاض له ألوان قائمة إلى زيّ شفاف يتوسل كل الألوان، كما يتميز غطاء الرأس والصدر القصير المتعدد الأنماط والألوان بألوان فاتحة وأشكال وأحجام مختلفة، مع تفاوت في الطريقة التي تنسق بها طريقة الارتداء، تصاميم دخيلة عن العادات والتقاليد نلاحظها في الفضاءات الجامعية، وعند مقابلة أفراد عينة البحث بصفة خاصة، في هذا التعدد والتنوع تقول إحدى المبحوثات ما يلي: "لدي العديد من الخمارات وبمختلف الألوان وهذا يسهل علي دائما اختيار اللوك المفضل لدي الذي يستجيب لذوقي الخاص"، لذلك نجد المرأة اليوم والطالبة الجامعية: "أنها ليست ملزمة بتصميم بعينه، ولا بلون معين، ولا بقماش مخصوص، فهي مخيرة في كل ذلك بحسب ما تسمح به أوضاعها الاقتصادية، أو بحسب المتاح في الأسواق، أو بحسب العرف والعادة، أو بحسب الانفتاح على تجارب الآخرين والملكات الإبداعية للمصممين أو المصممات للملابس."¹ على حد تعبير أحمد الأبيض.

وإذا ما عدنا إلى بيار بورديو في تحليله لقضية الذوق، نجد أنه يقدم رؤيا جديدة مغايرة لنظرية كانط Kant الجمالية التي طرحها في كتابه المعروف نقد الحكم الجمالي أين أشار فيها إلى أن الذوق أمر مطلق وعم وكلي، فبورديو يرى خلاف ذلك، إذ أن الذوق أمر اجتماعي نسبي، وليس أمرا مطلقا. وهذا ما قد يفسر نسق التحجب عند أفراد عينة البحث القائم على مبدأ الفردانية الجمالية، الذي يعد حسب محمد كرو "ليس رمزا دينيا ولا سياسيا، إنما هو مؤشر وكاشف للتغير الاجتماعي العميق الذي يستمد ويعتمد على لغة الدين والثقافة للتعبير عما هو جمالي."² وبالتالي يصبح هذا التحول مؤشرا وكاشفا لتغير اجتماعي وثقافي في المجتمع، ويضيف محمد كرو في نفس السياق قائلا: "إن المحجبات لديهن إدراك أكثر أو أقل دقة فيما يتعلق بلون وشكل وطريقة ارتداء الحجاب. ومع ذلك، فإن الذوق يتغير ليس فقط من امرأة إلى أخرى فالرجال في كثير من الأحيان لديهم وجهة نظر جمالية ومعاييرية على حجاب الإناث ولكن أيضا بالنسبة لنفس المحجبة التي تغير غطاء الشعر تبعا للحالة التي تكون فيها. فليس نفس الحجاب الذي يستعمل في حفل الزفاف، العمل، والمدرسة أو الأماكن العامة الأخرى."³ إذ بين ما تحدده الرغبات والميولات الشخصية تجتهد الكثير من المؤسسات في تلبية كل الحاجات من خلال التفصيل، الخياطة وتتبع الموضة، ولذا نجد أن التعدد في أشكال الحجاب وموديلاته يجعل المرأة عموما والطالبة المحجبة خصوصا تجد فيه تفردا وجمالية.

2.8 نتائج الفرضية الثانية الخاصة بأنواع الحجاب وأساليب نسق تحجب الطالبة الجزائرية في ظل التحول الثقافي.

نميز في ظل نسق تحجب الطالبة الجامعية اليوم أنواعا عديدة للحجاب وأساليب تحجب مختلفة تبعا لاختلاف الألوان والتصاميم والأشكال.

فإذا كان نسق تحجب الطالبة الجامعية يخضع لاختياراتها الفردية أكثر مما يخضع للمرجعية الدينية أو التقليدية كما تم التأكد منه إثر المعاينة الميدانية لواقع نسق التحجب في إطار الفرضية الأولى، فإن الفضاء الجامعي اليوم يتميز بنسق تحجب متعدد الأنماط والأنواع، وتنوعها يتركز على القطع المكونة للباس ككل، والذي قسمناه إلى ثلاثة أنماط أساسية، كل نمط له صفاته وقطعه التي تكونه.

¹ أحمد الأبيض، فلسفة الزي الإسلامي، دار المعارج، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص 146.

² Kerrou Mohamed, Hijab-nouveaux voiles et espaces publics, Ed Cérés, Tunis, p 46.

³ Kerrou Mohamed, op cit, PP 52 – 53.

وتم تحديد هذه الأنماط انطلاقاً من الدراسة الميدانية التي سمحت بتمييز أنماط تتفاوت فيما بينها، ليترك المجال لانتشار واسع للنمط الأول المتكون من الخمار (الفولار) ابتداءً من العريض الفضفاض إلى النوع الذي يسمح ببروز الأذنين وخصلات من الشعر الأمامي أو الخلفي مع السروال الضيق والليكات بأنواعها واختلاف ألوانها.

أما النمط الثاني، حيث يضاها في انتشاره النمط الأول، يتكون من الخمار، التّورات بأنواعها والقمصان والبودي القصير... في حين أن النمط الثالث، هو مكون من خمار فضفاض متعدد الألوان مع عباءة أو جلابة ذات أصل سوري أو مغربي أو خليجي في غالب الأحيان، منها الضيق ومنها الفضفاض، وبألوان متعددة، يقتصر هذا النمط على فئة محدودة من الطالبات.

من خلال هذه الأنماط الأساسية من اللباس نلاحظ أن هناك تدرجاً فيما يخص إظهار أو إخفاء الجسد، بمعنى أن هذه الأنماط اللباسية تعطينا قراءة نموذجية عن هوية المرأة وطبيعتها علاقتها بجسدها وسط محيطها الاجتماعي، فالغلاف الجسدي والذي يعتبر بناءً نفسياً كذلك يفصح عن المحتوى المخيالي لمسرح الجسد¹، والطالبة من خلال ذلك تحدد الكيفيات التي تجذب أن ينظر بها الآخرون إليها (متحجبة متشددة أو متحجبة متفتحة).

فمن مجموع الحالات نلاحظ أن ثلاثة عشر (13) حالة ترتدي الحجاب وفق أساليب متنوعة، من الأكثر التزاماً إلى الأكثر حداثة، فهؤلاء المبحوثات كثيراً ما يبحثن عن مظهر أكثر شبابية، يتجسد ذلك من خلال التقاطيع اللباسية والإكسسوار، وأساليب لف الخمار وممارسات التغطية، فيبحثن مثلاً عن اللباس الأنيق، الجديد وعن أغطية الرأس بأشكالها وألوانها.

يمثل الاهتمام بأساليب وضع الخمار من بين الاهتمامات الهامة عند الطالبة المتحجبة، حيث وجدنا الغالبية منهم تفضل الخمارات المستطيلة لا لشيء سوى لأنها عملية من جهة، وتستطيع أن تتفنن في أسلوب تثبيتها، ومن جهة أخرى، هي النوع الأكثر تداولاً في الأسواق التجارية.

من خلال أساليب هذا التثبيت، يغدو الخمار في حد ذاته زينة، فالطالبة تعتمد إلى إخفاء بعض المناطق من الجسد من جانب، وتعتمد إلى وضع مناطق أخرى بديلة في الواجهة من جانب آخر. «Cacher/mettre en valeur»²

من الأساليب التي تلجأ إليها الطالبات، وضع الخمار المستطيل على الطريقة المعاصرة، كمثل عن ذلك أسلوب وضع خمارين من أجل التلاعب بلونين، هذا الأسلوب يُجسد عن طريق لف خمارين في نفس الوقت، غالباً ما يلف الخمار الأول ثم يثبت فوقه الخمار الثاني، لتكون لقاتهما متساوية بشكل متناسق مرتين أو ثلاث مرات. وفي الأخير، إما تثبت نهايتهما على الرأس أو عند الأذن أو عند الحلق أو يلقان عند الحلق أو خلف الرأس على شكل زهرة أو كرة...، فيظهر الرأس بحجم أكبر، تقول إحدى المبحوثات: "أنا أحب الخمار المستطيل، أجد طريقة لف رأسي به أنسب ووجهي يكون أريح فيه".

أما من أساليب وضع الخمار المربع تقول إحدى المبحوثات: "...هناك العديد من الأساليب الفنية التي يوضع بها الخمار كالتلاعب بالألوان والأشكال والأحجام، أنا شخصياً أقوم بشد مجمل الشعر إلى خلف الرأس على شكل ذيل حصان وبعبار شعري طويلاً جداً ألقه كحبة طماطم ويثبت هناك، ثم أضع عليه الخمار بلطف وأثبتته أسفل الذقن وأربطه إما في الجانب أو خلف الرأس وأزينه

¹Bertoz Alain, Le Sens du mouvement, Paris, Odile Jacob, 1997, p 33.

²Pages-Delon Michèle, Le corps et ses apparences, L'Envers du look, Paris, l'Harmattan, Coll. Logiques sociales et éducations, 1989, p118.

بدبابيس". وهناك أساليب أخرى على حد تعبير المبحوثات، كلفّ الشعر وتثبيته بمشبك على شكل زهرتين كبيرتين من البلاستيك، ثم يوضع فوقه الخمار ويثبت أسفل الذقن، أو لفّ الشعر كما سلف الذكر ويدعم بمنديل رأس "foulard" وهو أصغر بقليل من الخمار يثبت وكأنه قطعة من الشعر، مضفياً بذلك على التسريحة حجم أرفع وأكبر، ليوضع الخمار عليه بعد ذلك، وقد تثبت التسريحة بإضافة قلنسوة "un bonnet" توضع على الرأس مباشرة، وتشد من الخلف لكي يثبت الخمار، فلا يزيح. يسمح نسق التحجب هذا بأنماطه المتعددة على تنقل الطالبة بكل سهولة مشياً أو جرياً أو جلوساً على المدرجات أو على مقاعد الحافلات أو حتى على الأرض أو في أي مكان آخر، دون الخوف من التعثر أو الانكشاف الفاضح نتيجة القفز أو بفعل عوامل أخرى، وأي شيء تلبسه الطالبة إلا وله وظائف معينة، لكن هذه الوظائف تتغير من طالبة إلى أخرى ومن نمط لآخر، وقد اتضح أن من وظائف نسق التحجب الذي وإن كان هو التستر، فإن ذلك لا يخفي الجانب الأنثوي والذي يزيد من جمال الطالبة وأناقته. وعليه يتضح جلياً أن نسق تحجب الطالبة اليوم هو في اتجاه نحو المزيد من التقليد للنموذج الحدائثي سواء الغربي أو الشرقي، فمن السروال العريض جدا الذي يشبه التّورة الطويلة والذي ظهر في الثمانينات إلى السروال العادي في التسعينات إلى الضيق أو كما يسمى السليم إلى السروال القصير pental-court، ثم التّورة القصيرة التي أصبحت مسموحة للمحجبات.

3.8 نتائج الفرضية الثالثة الخاصة بأثر الإعلام والاتصال الحديث على تغيير نسق التحجب لدى الطالبة الجامعية:

يعتبر الإعلام والاتصال الحديث عاملاً مؤثراً في طبيعة الوضع الثقافي للمبحوثات مما يؤدي إلى الإقبال على نسق تحجب حديث يختلف عما هو ثابت شرعياً وقره التقاليد.

فمن خلال مقابلاتنا مع المبحوثات وجدنا جميعهن على صلة بمعظم وسائل الإعلام الحديثة، خاصة منها التلفزيون وشبكة المعلومات (الانترنت: الفيسبوك، اليوتيوب، التويتير...)، هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل أن هذه الوسائل تسهم بشكل فعال في تثقيفهن وتزويدهن بمختلف المعارف المتعلقة بالموضة خاصة في الملابس والإكسسوارات، ومتابعة الجديد سيما وأن الإنترنت اليوم أصبح متاحاً للجميع ولمختلف الشرائح الاجتماعية والطبقية والذي أصبح يلي كل الأذواق والتوجهات، حيث كتب أحد الباحثين في هذا السياق قائلاً: "إن قدرة الإعلام على الإقناع... أقل بكثير مما يجري عادة، لكن قدرته على التثقيف هائلة."¹

ولأجل ذلك اتخذناه كمؤشر دال على الوضع الثقافي بهدف معرفة مدى ثقافة المحجبة في تتبع موضة الملابس، وقد أوضحت المقابلات أن المبحوثات كانت لها اهتمامات عامة قبل أو بعد التحجب كمشاهدة المسلسلات في المقام الأول وغيرها من البرامج التثقيفية بالإضافة إلى القنوات الدينية....، ومن خلال المقابلات تأكد أن لأفراد عينة البحث ثقافة واسعة ومتعددة حول العديد من الماركات العالمية، مما يدل ذلك على أنهن متفتحات على الآخر ومتتبعات لكل جديد الملابس والموضة، فمن خلال إجاباتهن حول سؤال مفتوح لماركات الملابس العالمية المعروفة لديهن تبين أنهن على دراية تامة بأهم ماركات الملابس العالمية، حيث أغلبهن بشأن بسرد أسماء ماركات ملابس جاهزة (SikSilk - Zara - Dope Chef - Guess - Ichiban - H & M - Joyrich - Dolce & Gabbana)، بل أبعد من ذلك، منهنّ من هنّ على تواصل واشترك مع مواقع هذه الماركات

¹ هاني رضا وآخرون، الرأي العام والإعلام والدعاية، الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، 1998. ص 96.

العالمية ليصلها كل جديد عن موضحة الملابس، وإن كانت هذه العلامات التجارية معظمها لا يهتم بجياطة ملابس الحجاب، إلا أن ذلك لا يمنع من أن تكون بعض قطع هذه الماركات (أحذية، سراويل، أقمصة...)، تستعملها بعض المحجبات، وهذا ما يدل على أن المحجبة اليوم متطلعة على كل ما يدور بها من جديد في عالم الموضة اللباسية بفضل الانفتاح على العولمة، وبالتالي التحول نحو الاعتماد على الثقافة الأجنبية ومحاولة خلق ثقافة هجينة تدمج الخصوصية الأجنبية مع الخصوصية المحلية لملابس الحجاب. وما يتأكد أيضا على هامش المقابلات أن اختيار بعض المبحوثات للقنوات والمواقع الالكترونية لا يتم عبثا، بل يساهم في توجيه بعضهن على بعض البرامج والمواقع التي يجب متابعتها دون غيرها، أين يجري الاهتمام دوما بالثقافة الملبسية، وهذا بدوره يساهم في تبني نسق التحجب الحدائي.

كما تكشف لنا الملاحظة والمعاشية كباحثين صدق ذلك، ويتكشّف للكثير من المهتمين حقيقة ذلك، لأننا نرى اليوم الكثير من المحجبات يضعون النظارات والماكياج ويلبسون الأحذية الرياضية لأشهر الماركات العالمية، فالعبرة في التميز في اللباس ليست بحكم الالتزام العقائدي، وهذا ما أكدت عليه بعض الحالات خلال المقابلات حيث اعترفن عند السؤال عن نظرتهن أو موقفهن من نمط تحجبهن بقولهن: "نحن ملتزمات نوع ما هناك بعض الأمور الدينية ندرکها ونعترف بها لكننا نتغاضى عنها نحاول أن نلتزم قدر المستطاع نتماشى مع الوقت الذي نحن فيه..."، هكذا كان موقفهن من نمط تحجبهن وإلا لرفضن المتحجبات اليوم ارتداء الأحذية الرياضية الفرنسية والصينية والإسبانية الصنع، والنظارات والماكياج.

هذا التحول وإن أخذ شكلا مظهريا إلا أنه مؤشر على تحول ما، هذا التحول قد نجد له تفسيرا فيما ذهب إليه الباحث الكوبي اورتيز Ortiz في قوله: "إنني أؤيد الرأي بأن كلمة المناقلة الثقافية Transculturation تعبر بشكل أفضل عن مراحل سياق الانتقال المختلفة، من ثقافة إلى أخرى، لأن هذا السياق لا يشتمل فقط على اكتساب ثقافة أخرى، بل يتضمن أيضا بالضرورة فقدان مقدار ما من ثقافة سابقة، أي الانتزاع منها، وهو ما يمكن تعريفه بالتجريد الثقافي Déculturation، أضف إلى ذلك أنه يقود بالتالي إلى فكرة ظاهرة نشأة ثقافة جديدة، وهو ما يمكن تسميته التثقيف الجديد"¹، ولعلّ هذا ما يمكن إسقاطه على نسق تحجب المرأة اليوم، الذي يطغى عليه الحجاب الحدائي بفعل التحول الثقافي، حيث أصبح الأكثر حضورا وانتشارا في الفضاءات الجامعية بين النساء سيما الطالبات، وأضحى يأخذ أشكالا وأنواعا متعددة ومختلفة، منها ما هو وافد من الغرب ومنها ما هو وافد من المشرق، فنحن ليس لدينا نموذج ثقافي موحد، بل لدينا مجموعة ثقافات تتعايش مجتمعة، وهي ثقافات تجمع بين التقليد والحداثة، وهذا ما تم طرحه في نظرية الانتشارية²، ويؤكد فكرة الانتشار الثقافي والتثاقف التي تستند إليها الرؤية الانثروبولوجية التي أسس لها فرونز بواس.

¹ عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 151.

² يحي مورسي، أصول علم الإنسان، ج1، مطبعة الإشعاع الفنية، مصر، 2000، ص 37.

9. خاتمة:

ختاماً، ومن خلال هاته الدراسة، تطرقنا إلى نسق تحجب المرأة، معانين في ذاك حجاب الطالبة الجامعية، حيث تتعدد أنماطه وتنوع وظائفه.

عرف نسق التحجب تحولات عميقة شكلاً ومضموناً، أفقدته خصائصه الثقافية ودلالاته الدينية، وأضحى غاية تتجلى أبعادها فيما هو ذاتي نفسي، وما هو اجتماعي أنثروبولوجي، إذ يسهم الوضع الثقافي، والحضاري في إقبال الطالبة الجامعية على الحجاب الحديث، حيث سهلت وسائل التكنولوجيا الحديثة منها وسائل الإعلام والاتصال، وفي مقدمتها شبكات التواصل الاجتماعي والتلفزيون في اكتساب الطالبة الجامعية قيم الثقافات الغربية، والمشرقية، من خلال عمليات الثقافة.

فالجمال بالنسبة للطالبة واقع في الجسد والنفس، وهو بالدرجة الأولى فكرة تتمثل، ثم تليها بعد ذلك قواعد تطبق بنص المعرفة الثقافية والحضارية والعقائدية والاجتماعية. كما أنه مسألة ذوق وليس نمطاً جامداً، غير قابل للتغيير وإعادة التشكيل.

فالمظهر الجسدي، والمتمثل في كل ما يغطي الجسد من لباس بالإضافة إلى التزين بمساحيق الماكياج الحديثة مع أساليب الارتداء، تدل على رأسمال يجب الحرص على المحافظة عليه لأنه يحمل قيم ومعايير الحديثة من تفرد، جمال، حرية، تقدم ورقي حضاري، وفي خضم ذلك تلجأ الطالبة الجامعية لنسق التحجب الجديد للتمسك من جهة بالدين، والظهور من جهة أخرى بمظهر الفتاة العصرية، وبالتالي أصبحت قضية اللباس الشرعي تميل أكثر فأكثر إلى الانفلات من قبضة النظرة الدينية المحافظة في اتجاه مزيد من التنوع والاختلاف الثقافي.

لذلك فإن الخمار يعكس الهوية الاجتماعية للمرأة، بينما باقي الملابس تعكس الهوية الذاتية أو الفردية للمرأة باعتبار أن غطاء الرأس هو الثابت ويمثل المركز في رمزية الحجاب وإنما شكل ولون باقي اللباس متحول، يتحكم فيه الذوق وبنية الجسد وما يروق المرأة ويلائمه من الثياب.

وتتويجا لكل ما سبق نوصي بما يلي:

- 1 حمل ندوات تناقش فيها المشكلات الخاصة بالجسد الأنثوي خاصة والتحليل النفسي الثقافي من خلال مختصين، حيث أن الوضوح الفكري يساعد على وضوح المفاهيم الخاصة بعملية التذوق الصائب بنسق التحجب الشرعي.
- 2 إجراء دراسات جادة تعنى بالمتغيرات الأخرى التي تؤثر على عملية التذوق الملبسي واتخاذ القرارات الملبسية مثل المتغيرات الأنثروبولوجية والثقافية حتى يمكن الارتقاء بثقافة التحجب المستوحى من مقتضيات الشّرع، ومن موجبات العادات والتقاليد.

10. قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني عشر، لبنان، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط، 1993.
- 3 - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج3، دار الفكر، بيروت، دس.
- 4 - أحمد الأبيض، فلسفة الزّي الإسلامي، دار المعارف، دمشق، سوريا، ط1، 2010.
- 5 - جان كويان، المسح الأثنولوجي ودراسة الممارسات الدينية، ترجمة جهيدة لاوند، معهد الدراسات الإستراتيجية، ط 1، بيروت، لبنان، 2008.
- 6 - جمال بن عمار الأحمر، الأثنوبولوجيا الثقافية والاجتماعية، عمان، دار الأيام للنشر والتوزيع، 2015، ط 1. د س.
- 7 - الجندي فدوى، الحجاب بين الحشمة والخصوصية والمقاومة، ترجمة سهام سنية عبد السلام، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016.
- 8 - حسينة ولد موسى، ظاهرة الموضة دراسة حالة اللباس النسوي، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، جوان 2000.
- 9 - سعاد عثمان، تكامل المنهجية عند أحمد أبو زيد، مجلة العربي، "العالم والمفكر أحمد أبو زيد رائد الأثنوبولوجيا، العدد 659، وزارة الإعلام، الكويت، أكتوبر 2013.
- 10 - الشماس عيسى، مدخل إلى علم الإنسان، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.
- 11 - عبد الوهاب عبد السلام طويلة، فقه الألبسة والزينة، ط 1، القاهرة، دار السلام، 2006.
- 12 - فتحية محمد إبراهيم وآخرون، مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان "الأثنوبولوجيا"، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، د س.
- 13 - فتحية محمد إبراهيم وآخرون، مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان (الأثنوبولوجيا)، دار المريخ، الرياض، 1988.
- 14 - فتيحة عين المرّة، لباس الفتاة الجزائرية، دراسة ميدانية في وسط طالبات جامعة سعد دحلب البليدة، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة سعد دحلب البليدة، جوان 2007.
- 15 - فريد كامل أبو زينة وآخرون، مناهج البحث العلمي، طرق البحث النوعي، عمان، الأردن، دار المسيرة للنشر والتوزيع، والطباعة، 2007.
- 16 - قاموس البدر، قاموس عربي عربي، دار البدر الساطع للنشر و التوزيع، ط 2، الجزائر، 2005.
- 17 - محمد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل والتطبيقات، دار وائل للنشر، عمان، ط 2، 1999.
- 18 - معن خليل عمر، مناهج البحث في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997، ص 222.
- 19 - هاني رضا وآخرون، الرأي العام والإعلام والدعاية، الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، لبنان، 1998.
- 20 - يحيى مورسي، أصول علم الإنسان، ج 1، مطبعة الإشعاع الفنية، مصر، 2000.
- 21 - الجريدة الرسمية، ع 53، سبتمبر 2001.
- 22- Bertoz Alain, Le Sens du mouvement, Odile Jacob, Paris, 1997.
- 23- Hessini Leila, femmes culture et société au Maghreb, culture femme et famille, signification du voile au maroc, tradition, Protestation ou libération, Afrique orient, Casablanca, V1, 1996.
- 24- Kerrou Mohamed, Hijab-nouveaux voiles et espaces publics, Ed Cérès, Tunis.
- 25- Pages-Delon Michèle, Le corps et ses apparences, L'Envers du look, Paris, l'Harmattan, Coll, Logiques sociales et éducations, 1989.